بسم الله الرحمن الرحيم (١)

﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾

هكذا يستهل الحق سبحانه هذه السورة بالحروف المقطعة « ألف » « لام » « راء » ، وسبق أن قلنا : إنها حروف توقيفية بلَّغها رسول الله لنا كما سمعها من جبريل عليه السلام .

إلا أن المُلاحَظ أن هذه الحروف التوقيفية المُقطَّعة لم تَأْتِ وحدها في هذه السورة كآية منفصلة ؛ مثل قوله في أول سورة ق :

﴿ قٓ ﴿١﴾ ﴾ [ق]

وهي آية بمفردها ، وكما جاء في غير ذلك من السور بحروف مقطعة وأثبتها كآيات . وهنا تأتي الحروف التوقيفية المقطعة كجزء من الآية .

ويقول الحق سبحانه :

---

(١) سورة إبراهيم هي السورة الرابعة عشرة في ترتيب المصحف ، عدد آياتها ٥٢ آية ، وهي سورة مكية في قول الحسن وعكرمة وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آيتين منها مدنيتين . وقيل : ثلاث نزلت في الذين حاربوا الله ورسوله ، وهي قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [إبراهيم] . [تفسير القرطبي ٥/٣٦٧٥].

﴿ الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ .. ﴿١﴾ ﴾ [إبراهيم]

كلمة « كتاب » إذا أطلقت انصرف معناها إلى القرآن ؛ فهو يُسمَّى كتاباً ؛ ويُسمَّى قرآناً ، ويُسمَّى تنزيلاً ، وله أسماء كثيرة .

وكلمة «كتاب » تدل على أنه مكتوب ، وكلمة «قرآن » تدل على أنه مقروء ، وهذان الاسمان هما العُمْدة في أسماء القرآن ؛ لأنه كتاب مكتوب ومقروء .

فكان الصحابي[1] الذي يجمع القرآن لا يكتب آية إلا إذا وجدها مكتوبة ، ووجدها مَقْروءة عن اثنين من الصحابة ؛ فالقرآن كتاب يملك الدليل على كتابته من عهد رسول الله ﷺ ؛ وهو مَقْروء كما تدلُّ كلمة « قرآن » .

وقوله الحق :

﴿ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ .. ﴿١﴾ ﴾ [إبراهيم]

يدلُّ على أنه جاء من عُلُوٍّ .

ويقول الحق سبحانه في موقع آخر عن القرآن :

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل]

ويقول في موقع آخر :

(١) هو : زيد بن ثابت الأنصاري ، صحابي ، كان كاتب الوحي ، ولد في المدينة ١١ ق هـ ، ونشأ بمكة . كان أحد الذين جمعوا القرآن في عهد النبي ﷺ من الأنصار ، وعرضه عليه ، وهو الذي كتبه في المصحف لأبي بكر ، ثم لعثمان حين جهز المصاحف إلى الأمصار . (الأعلام للزركلي ٣/٥٧) .

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ .. (١٠٥) ﴾ [الإسراء]

ومرة يسند النزول إلى مَنْ جاء به ؛ ومرة ينسب النزول إلى الكائن الذى أرسله الحق بالقرآن إلى محمد ﷺ ، وهو جبريل عليه السلام .

فقوله : ﴿ أَنزَلْنَاهُ.. (١) ﴾ [إبراهيم] للتعدى من منطقة اللوح المحفوظ ليباشر مهمته فى الوجود ، وعِلّيّة إنزال القرآن إليك يا محمد هى :

﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. (١) ﴾ [إبراهيم]

ونلحظ هنا أن القرآن نزل للناس كافّة ، ولم يَقُلِ الحقُّ سبحانه ما قاله للرسُل السابقين على رسول الله ؛ حيث كانت رسالة أىٍّ منهم مُحدَّدة بقوم مُعيَّنين ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا .. (٦٥) ﴾ [الأعراف]

وقوله الحق :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا .. (٨٥) ﴾ [الأعراف]

وكذلك قوله سبحانه لموسى :

﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران]

وهكذا كان كُلُّ رسول إنما يبعثه الله إلى بُقْعة خاصة ، وإلى أناسٍ بعينهم ، وفى زمن خاصٍّ ، إلا محمداً ﷺ ؛ فقد بعثه الله إلى الناس كافّة .

والمثل أمامنا حين حكم ﷺ بالحق بين مسلم ويهودى ؛ وأنصف اليهودى ؛ لأن الحق كان معه[1] ؛ والحق عند رسول الله ﷺ أعزُّ عليه ممَّنْ ينتسب إلى الإسلام .

وهكذا نرى أن قوله الحق :

﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. ① ﴾ [إبراهيم]

دليل على عمومية الرسالة ، ويُعزِّزها قوله :

﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا .. ١٥٨ ﴾ [الأعراف]

وبذلك تبطل حُجَّة مَنْ قالوا إنه مُرْسَلٌ للعرب فقط .

ونجد هنا اصطفاءين لرسول الله ﷺ .

الاصْطفاء الأول : أن الحق سبحانه قد اختاره رسولاً ؛ فمجرد الاختيار لتلك المهمة ؛ فهذه منزلة عالية .

والاصْطفاء الثانى : أنه رسولٌ للناس كَافَّة ؛ وهذه منزلة عالية

---

(١) أخرج ابن عساكر (٧/ ٣٥٤ تهذيب تاريخ دمشق) عن عبدالله بن أبى حدرد الأسلمى أنه كان ليهودى عليه أربعة دراهم فاستعدى عليه . فقال : يا محمد إن على هذا أربعة دراهم وقد غلبنى عليها ، قال : أعطه حقه . قال : والذى بعثك بالحق ما أقدر عليها ، قال : أعطه حقه . قال : والذى نفسى بيده ما أقدر عليها ، قد أخبرته أنك تبعثنا إلى خيبر فأرجو أن تغنمنا شيئاً فأرجع فأقضيه . قال : أعطه حقه ، وكان رسول الله ﷺ إذا قال ثلاثاً لم يُراجع ، فخرج ابن أبى حدرد إلى السوق وعلى رأسه عصابة وهو متزر ببردة ، فنزع العمامة عن رأسه فاتزر بها ونزع البردة فقال : اشتر منى هذه البردة . فباعها منه بأربعة دراهم . فمرَّت عجوز فقالت : ما لك يا صاحب رسول الله ﷺ ؟ فأخبرها . فقالت : هادونك هذا البُرْد - لبرد عليها طرحته عليه . وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٤٢٣) وأورده الكاندهلوى فى حياة الصحابة (٢/ ٨١) .

أخرى ؛ لأنها تستوعب المكان والزمان ، والألسنة والأقوام .

ثم يأتي الإعجاز في قوله :

﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. ﴿١﴾ ﴾ [إبراهيم]

ولم يَقُلْ من الظلمات إلى الأنوار ، وشاء أنْ يأتي بالظلمات كجمْع ؛ وأنْ يأتي بالنور كمفرد ، لأن النور واحد لا يتعدد ؛ أما الظلمات فمتعددة بتعدُّد الأهواء ؛ ظُلْمة هنا وظُلْمة هناك .

وحين يُخرجنا الحقُّ سبحانه من الظلمات المتعددة حَسْب أهواء البشر ؛ فهذا فَضْلٌ منه ونعمة ؛ لأننا نخرج إلى النور الواحد .

وهكذا يشاء الحق سبحانه أن يُجلي المعاني بالمُحسَّات التي يدركها الجميع ، فلا شك أن الظُّلْمة تستر الأشياء التي قد يصطدم بها الإنسان فيمتنع عن السير مطمئناً ؛ لأنه إنِ اصطدم بشيء فقد يُحطِّم الشيء أو يُحطِّمه هذا الشيء ؛ وهكذا تمنع الظُّلْمة الإنسان من أن يهتدي إلى ما يريد .

أما النور فهو يوضح الأشياء ، ويستطيع الإنسان أن يُميِّز بين الطرق ويتجنب الضار ويتجه إلى النافع ؛ ويكون على بصيرة من الهداية ؛ ذلك هو الأمر الحِسيّ ؛ وكُلٌّ من النور والظلمة أمرٌ حِسي .

وهكذا يُجلِّي الله لنا المعاني ، والحياة لا تحتاج فقط إلى ما يُجلي المظاهر المادية بالنور ؛ بل تحتاج أيضاً إلى نور يُجلي المظاهر المعنوية ؛ من حقد وحسد ، وخوف وأمن ، واطمئنان ، وأمانة ووفاء ؛ وغير ذلك .

فالحياة كلها فيها الشيء وما يقابله ؛ لذلك لا بُدَّ أن تُجْلَى المعاني أيضاً . والنور الذي جاء به رسول الله ﷺ يُجلي الحسَّ والمعنى في آنٍ واحد ؛ لنتجنب الأشياء التي تطمسها الظُّلْمة ؛ ولنسير على بينة من المعاني ، فلا نصطدم بالعقبات .

ولذلك يُفسِّر لنا الحق سبحانه الأمر المعنوى ، فيقول :

﴿إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ①﴾ [إبراهيم]

وهذا هو الصراط المستقيم الذي يُخرجنا إليه محمد ﷺ من الظلمات إلى نوره .

ويريد الحق سبحانه أنْ يُجلي لنا الطريق إلى هذا الصراط ، لأنه قد يكون مُتعِباً للبعض ؛ فيريد سبحانه أن يجمع لنا بين أمرين ؛ طريق متضح واضح يَصِل فيه الإنسان إلى الغاية بِيُسْر ؛ وطريق آخر غير واضح لا تتجلى فيه الأشياء .

وجاء بالظلمات والنور ليوضح لنا هذا المعنى ؛ حيث يكون الطريق المستقيم هو أقصر وسيلة للغاية المَرْجُوَّة من الحياة الدنيا والآخرة ؛ ويكون طريق الظلمات هو الطريق غير الآمن .

وينسب الحق سبحانه الطريق الذي يُخرِجنا إليه الرسول ﷺ :

﴿إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ①﴾ [إبراهيم]

والعزيز هو الذي يَغْلب ولا يُغْلَب . والحميد هو مَنْ ثبتت له صفة الحمد من الغير ، وإنْ لم يصدر حَمْدٌ من الغير ؛ فهو حميد في ذاته ، ويجب أن يُحمد رغم أنك إن حمدتَه أو لم تحمده فهو حميد .

ولله المَثَلُ الأعلى ، وسبحانه مُنَزَّه عن كل مثيل أو شبيه ؛ نجد في حياتنا الدنيا مَنْ يُقال عنه إنه حميد الخصال ؛ وإنْ لم يوجد مَنْ يمدحه ؛ لكنه في كُلِّ ما يصدر عنه يراعي أن يكون محموداً .

ولكن البشر يكون المحمود منهم حَدَثاً ؛ أما المحمود من الحق فهو مُطْلق ، ولا تكون الذاتُ محمودة أو حميدة إلا إذا كان لها من الصفات ما يجعلها أهلاً للإنعام الذي يجب على الإنسان أن يحمده .

والفطرة السليمة في الإنسان تستقبل هذا الكون المُعَدّ من قَبْل أنْ يوجد لاستقباله ، وتحب أن تحمد مَنْ صنع هذا الكون ، رغم أن حَمْد الإنسان أو عدم حَمْده لا يضيف شيئاً لِمَنْ أعدَّ هذا الكون وخلقه ؛ فهو محمود في ذاته .

وإن حمدته فهذا لمصلحتك ؛ وفي هذا هداية إلى صراط العزيز الذي لا يُغْلب ، والحميد الذي يستحق الحمد ؛ وإنْ لم يوجد حامد له ؛ لأن صفاته سبحانه أزلية .

فالله خالق قبل أن يخلق الخلق ؛ وهو الرازق قبل أن يُخْلق المرزوق ، وهو مُعز قبل أن يوجد مَنْ يُعزه ؛ محمود قبل أنْ يوجد مَنْ يحمده ؛ توَّاب قبل أن يوجد مَنْ يتوب عليه .

فهو سبحانه بالصفة يفعل ؛ أما الإنسان فلا يفعل إلا إذا فعل الصفة ، فأنت لا تعرف أن فلاناً كريم ؛ إلا لأنك تراه يعطي عن جُود وسَخاء ، أما الله فهو الكريم من قبل أن يوجد مَنْ يُكرمه .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :